بسم الله الرحمن الرحيم

متى قيل: (قاموس) ومتى قيل: (معجم) لكتاب اللغة المرتَّب؟

محمد خليل الزَّرُّوق

الحروف العربية كانت تنقط في المائة الأولى الهجرية وقبلها، كما تدل عليه النقوش[١]، ولكن نقط الإعجام الذي كان في أواخر المائة الأولى المنسوب إلى نصر بن عاصم الليثي[٢] (-٨٩ أو ٩٠هـ) له معنيان: جَعْل ذلك في المصحف الشريف، إذ لم يكن منقوطًا، ولم يكن النقط مستعملًا في الكلام تامًّا ولا دائمًا، ثم ترتيب الحروف بحسب هذا النقط، وهو ترتيب ألف با تا، فجُعلت الحروف المتشابهة متجاورة، وفَرَّق بينها النقط، فقيل فيها: حروف المعجم، أي حروف الإعجام، فيكون المعجم مصدرًا ميميًّا، أي التي زالت عجمتها بالنقط، أي زال غموضها وخفاؤها على غير البصير، أو حروف الخط أو الرسم المعجم، أي المنقوط، فيكون المعجم اسم مفعول.

ولم يكن هذا الترتيب معروفًا، ولكن كان الترتيب المعروف ترتيب أَبْجَدْ، وهو المستعمل في السُّريانية والعبرانية قبل هذا، فجاء ترتيب ألف با تا فنسخه، وصار هو الترتيب الإسلامي، وقد وُضع بمناسبة خدمة المصحف الشريف بنقط الإعجام تجنبًا للتصحيف. وصار ترتيب أبجد مستعملًا فقط في حساب الجُمَّل، أي إعطاء كل حرف عددًا على نظام معروف.

ثم يقول ابن ناصر الدين (-٨٤٢هـ) في كتاب «**الرد الوافر**»: «أول من رتب الأسماء على الحروف من المحدِّثين أبو عبد الله البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ)»[٣]. ومن ههنا سمى أهل الحديث

---

[١] انظر مثلا: **التراث المعجمي العربي** من القرن الثاني حتى القرن الثاني عشر، رمزي بعلبكي، المركز العربي للأبحاث، الدوحة، ٢٠٢٠م، ص ٢١.

[٢] انظر مثلا: **المحكم في نقط المصحف**، لأبي عمرو الداني، تح عزة حسن، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٩٧م، ص٧.

[٣] **الرد الوافر**، لابن ناصر الدين، تح زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٩١م، ص ٢٥.

الكتاب المرتب على أوائل حروف الأسماء بحسب حروف المعجم، سموه المعجم، أي كتاب حروف المعجم، ثم اختُصر إلى المعجم، ومن أقدم ذلك «**المعجم**»[١] لأبي يعلى الموصلي (٢١٠-٣٠٧ أو ٣٠٦هـ)، فرتبوا الأعلام إما للترجمة، وإما لسياقة أحاديثهم التي رووها. فأهل الحديث هم أول من استعمل اسم المعجم في الكتب على هذا الوصف لهذا الغرض، منذ المائة الثالثة، وكثر ذلك في المائة الرابعة فما بعد. وتبعهم أهل الأدب، فسموا: معجم الشعراء، ومعجم الأدباء، ومعجم البلدان.

ولا نجد في اللغة كتابًا سمي باسم المعجم، إلا ما جاء من كتاب للزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ) يسمى: «**معجم الحدود**»[٢]، ولا يُعرف مضمونه، وكأنه في المصطلح العلمي، أي تعريف المصطلحات. ولكن ما نعرفه اليوم باسم المعاجم أو القواميس كانت تعرف بكتب اللغة، أو متن اللغة، أو فقه اللغة، أو علم اللغة، وأظن أنهم لم يفعلوا ذلك، لأن الكتاب في اللغة إما أن يرتب على المعاني أي الموضوعات، لا الحروف، كـ «**الغريب المصنف**» و«**المخصص**»، وإما أن يرتب لا على حروف المعجم ألف با تا، ولكن على ترتيب المخارج الذي ابتدعه الخليل بن أحمد، كـ «**العين**» و«**تهذيب اللغة**»، وإما أن يرتب على حروف ألف با تا، أي حروف المعجم، ككثير من الكتب، فنوع واحد من كتب اللغة مرتب على حروف المعجم، وليس كلها كذلك، فلم يرتبط اسم المعجم بكتب اللغة لهذا السبب، فيما أظن.

وأما كتاب ابن فارس (٣٢٩-٣٩٥هـ): «**المقاييس في اللغة**»، وقد نشر باسم «**معجم مقاييس اللغة**»، وجاء في أوله: «هذا كتاب المقاييس في اللغة»[٣]، فلفظ المعجم مقحم في العنوان، تعريفًا بمضمون الكتاب وترويجًا له، والعنوان مُغَيَّر، ومثله: «**بقية الأشياء أو بقايا**

---

[١] **كتاب المعجم**، لأبي يعلى الموصلي، إدارة العلوم الأثرية، فيصل أباد/ باكستان، ١٩٨٧م.

[٢] **كشف الظنون**، للحاج خليفة، إستانبول، ١٩٤١م، ص ١٧٣٤.

[٣] **معجم مقاييس اللغة**، لابن فارس، تح عبد السلام هارون، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٦م، ١/١.

الأشياء» لأبي هلال العسكري (من المائة الرابعة) نشر مرة باسم: «**المعجم في بقية الأشياء**»[١]، وهذا من عمل الناشر لا المؤلف.

ثم جاء مجد الدين الفيروزآبادي (٧٢٩–٨١٧هـ) وألف كتابه: «**القاموس المحيط**»، ولفظ القاموس من القَمْس، جاء في «**كتاب العين**»: «كل شيء ينغطّ في الماء فقد قَمَس... وفي المثَل: بلغ قوله قاموس البحر، أي قعره الأقصى»[٢]. وما وصفه بأنه مثل، أصله حديث صحيح رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس من قول ضِمَاد الأزدي لما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الحمد لله نستعينه ونستغفره.. إلخ، قال: لقد سمعت الشعر والعِيَافة والكهانة، فما سمعت مثل هذه الكلمات، لقد بلغن قاموس البحر»[٣]. واللفظ قليل الاستعمال في الكلام، وقال المعري على عادته في الإغراب والاغتراف من كتب اللغة في شعره ونثره:

الحمد لله قد أصبحتُ في لُجَجٍ مكابدًا من هموم الدهر قاموسا[٤]

وقال السخاوي في ترجمة المجد: «وألف فيها تواليف حسنة، منها القاموس، ولا نظير له في كتب اللغة، لكثرة ما حواه من الزيادات على الكتب المعتمدة كالصحاح... وأعراه من الشواهد اختصارا»[٥]. وقوله: فلا نظير له يبين لك مكانة القاموس ووقعه عند معاصري المجد ومن جاء بعده، فقد تلقوه كما يتلقى العطشان الماء البارد، وسبب ذلك كما ذكر السخاوي اختصاره ووجازة عبارته وما زاده على الصحاح من ألفاظ ومواد واستدراك، وذلك العصر كان يميل إلى المتون والجمع، فجاءهم المجد بما يروقهم في ذلك، ولو حُذف منه أعلام الناس والمواضع، وما

---

[١] **المعجم في بقية الأشياء**، لأبي هلال العسكري، أكمله وعلق عليه: إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م.

[٢] **كتاب العين**، للخليل بن أحمد، تح المهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٨م، ٨٧/٥.

[٣] **مسند الإمام أحمد**، أشرف على تحقيقه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م، ٤٧٧/٤، وانفرد **صحيح مسلم** ٥٩٣ (عبد الباقي) بأنه فيه: «ناعوس البحر»، وكأنه تحريف.

[٤] **اللزوميات** ، تح أمين عبده العزيز الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٢٤م، ٣٠/٢.

[٥] **الضوء اللامع**، للسخاوي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٣٤م، ٨٤/١٠.

حشاه به من الطب، لجاء في جزء واحد أو نحو ذلك. وقد كُتب عليه كثير من التحشية والتعقيب والشرح، ودرة ذلك كتاب الزَّبيدي (١١٤٥-١٢٠٥هـ): «**تاج العروس**»، فكان القاموس الكتاب المنفرد في اللغة الذي شُرح كلمة كلمة.

وأما قبل كتاب المجد فلا أعلم كتابًا ألف باسم القاموس، وقال لويس شيخو: «ابن علي يشوع المتطبب النَّسْطُوري (نسبة إلى فرقة من النصارى) عاش في أوائل القرن العاشر للميلاد (أي الرابع للهجرة) له قاموس سُرْياني عربي، طبع قسمًا منه المستشرق هوفمان G. Hoffmann في كيال سنة ١٨٧٤م»[١]. وما في القوسين من عندي. وهذا لا يفيد أنه سماه القاموس، ولكنه يريد المعنى الذي يعنيه أهل عصرنا بالمعجم والقاموس، أي الكتاب المرتب على الحروف الذي يفسر ألفاظًا من اللغة، وقال ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في ترجمة متَّى بن يونان (-٣٢٨هـ): «وله تفسير من السُّرْياني إلى العربي»[٢]. فانظر كيف وصف المعجم ثنائي اللغة بهذا الوصف، على ما كانوا يعبرون به في عصرهم، كما عبر لويس شيخو بالمعهود في عصره. ومثله ما تراه في معجم المؤلفين مثلا وفي غيره من أن فلانًا له قاموس في كذا، فهذا معناه.

ومن معاصري المجد الفيروزآبادي أو بعده بقليل كان عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي (٧٦٧-٨٣٢هـ)، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، له كتاب في التصوف دعاه: «**الناموس الأعظم، والقاموس الأقدم**». وله ترجمة في أعلام الزركلي[٣].

ومن بعد عصر الفيروزآبادي سمى الناس الكتب باسم القاموس، فوجدنا: القاموس في الفقه، وقاموس الأطباء، وقاموس الشريعة، وقاموس العاشقين، وغير ذلك، ولم نجد كتابًا في اللغة سمي باسم القاموس.

---

[١] **المخطوطات العربية لكَتَبَة النصرانية**، لويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٤م، ص ١٣.

[٢] **طبقات الأطباء**، لابن أبي أصيبعة، المطبعة الوهبية، القاهرة، ١٨٨٢م، ٢٣٥/١.

[٣] **الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٥١/٤.

وبعد ذلك اشتغل المستشرقون باللغة العربية وألفوا فيها كتبًا، فظهرت الحاجة إلى استعمال كلمة تقابل Dictionnaire أو Dictionary. وانظر مثلا كتاب «**اكتفاء القَنوع بما هو مطبوع**» لإدوارد فانديك (كان حيًّا سنة نشر كتابه ١٣١٤هـ = ١٨٩٧م)، ففيه بعنوان: قواميس الإفرنج للغة العربية، وسرد منها خمسة عشر كتابًا مرتبة بحسب تواريخ نشرها، وكلها تفسر الألفاظ العربية باللغات الإفرنجية، وأقدمها نشر في ميلان بإيطاليا سنة ١٦٣٢م، وآخرها سنة ١٨٩٤م، ولا أدري هل سمي بعضها بقاموس، على أن عنواناتها على الأغلب بلغات أصحابها، وقال بعد السادس منها: «وأساس هذه القواميس الستة التي وضعها الإفرنج هي القواميس، أي المعجمات، العربية الشهيرة»[١].

لكن تثبيت هذين المصطلحين: «قاموس» و«معجم» للكتاب المرتَّب على الحروف الذي يفسر ألفاظ اللغة، إنما كان في سلسلة معاجم اللبنانيين النصارى، يأخذ بعضها عن بعض، وأولها أصلها الذي ترجع إليه وتبني عليه، وهو:

١- ما نشر في سنة ١٨٦٧م في بيروت، ، أي قبل صدور «**اكتفاء القَنوع**»، باسم: «**محيط المحيط**»، لبطرس البستاني (١٢٣٤-١٣٠٠هـ = ١٨١٩-١٨٨٣م)، وفي صفحة العنوان: «كتاب محيط المحيط، تأليف المعلم بطرس البستاني، عُفي عنه، أي قاموس مطول للغة العربية»، وفي المقدمة: «محيط الفيروزبادي الذي هو أشهر قاموس للغة العربية»[٢]. ولم يذكر شيئا في (ع ج م)، وقال في (ق م س): «والقاموس كتاب الفيروزبادي في اللغة العربية، لقّبه بالقاموس المحيط لاتساعه، وبُعد غوره، ومنه سمي كل كتاب في اللغة مشتمل على مفرداتها مرتبة على حروف المعجم مع ضبطها وتفسير معانيها بالقاموس، وهو من اصطلاح المولَّدين، ويرادفه عند العرب: اللغة، فإنهم يسمون القواميس بكتب اللغة». فاستعمل لفظ القاموس، ولم يستعمل لفظ المعجم، ويفهم من كلامه أيضًا أن القدماء لم يستعملوه. وقوله: المولدين، ليس في محله،

---

[١] **اكتفاء القنوع بما هو مطبوع**، لإدوارد فانديك، دار الهلال، القاهرة، ١٨٩٦م، ص ١٦.

[٢] **محيط المحيط**، لبطرس البستاني، بيروت، ١٨٦٧م، ١/ ٢.

لأنه يراد به كل الذين جاءوا بعد عصر الاحتجاج اللغوي، أي بعد آخر المائة الثانية الهجرية على وجه التقريب، والأليق أن يقول: المعاصرين. ويحسن أن نذكر أن المؤلف جعل للكتاب مختصرًا سماه: «**قُطْر المحيط**»[١].

٢- وفي سنة ١٨٨٩م صدر الجزء الأول من كتاب: «**أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد**»، أي قبل كتاب اكتفاء القَنوع، وهو مذكور فيه، لسعيد الشَّرْتُوني (١٢٦٥-١٣٣٠هـ = ١٨٤٩-١٩١٢م)، وقال في المقدمة: «فلجّ داعي الاحتياج إلى وضع معجم يُطِلّ بالطالب على طَلِبته»[٢]. وقال: «المقصد الثالث في ذكر نزر من مما عثرتُ عليه في المعجمات من أغلاط النسخ والطبع»[٣]. ولم يذكر ذلك في (ع ج م) منه، ولكن قال في (ق م س): «والقاموس كتاب الفيروزبادي في اللغة العربية لقبه بالقاموس المحيط، ويطلقه أهل زماننا على كل كتاب في اللغة، فهو يرادف عندهم كلمة معجم وكتاب لغة». وقوله: أهل زماننا، خير من قول محيط المحيط: المولدين. فهذا أقدم استعمال مدون وجدته للفظ المعجم بالمعنى المراد. وأضم إليه أنه مستعمل أيضًا بهذا المعنى في كتابة الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار منذ صدورها سنة ١٨٩٨م[٤].

٣- وفي سنة ١٩٠٧م صدر كتاب باسم «**معجم الطالب، في المأنوس من متن اللغة العربية والاصطلاحات العلمية العصرية**»[٥]، طبع في المطبعة العثمانية ببلدة بعبدا بلبنان، لجرجس همّام الشُّوَيْري (١٢٧٢-١٣٣٩هـ = ١٨٥٦-١٩٢١م)، وقال في (ع ج م) منه: «ومعجم اللغة كتاب يحوي مفرداتها مشروحة ومرتبة على الحروف الهجائية، وهو المعروف عندنا بالقاموس». وقوله: عندنا، مثل قول أقرب الموارد: أهل زماننا. وفي (ق م س): «القاموس:

---

[١] **قُطْر المحيط**، لبطرس البستاني، بيروت، ١٨٦٩م.

[٢] **أقرب الموارد** في فُصَح العربية والشوارد، لسعيد الشرتوني، بيروت، ١٨٩٠م، ٦/١.

[٣] **أقرب الموارد** ١٠/١.

[٤] **مجلة المنار**، انظر مثلا: ٨٥٥/١.

[٥] **معجم الطالب**، لجرجس همام الشويري، المطبعة العثمانية، بعبدا/ لبنان، ١٩٠٧م.

البحر المحيط، وكتاب في متن اللغة العربية للإمام الشهير الفيروزبادي، وأطلقه المولدون على كل كتاب في اللغة يتضمن مفرداتها مشروحة». وأخذ هنا لفظ: المولدون، عن محيط المحيط. وفي صدر الكتاب رسالة بعنوان: اللُّمَع النواجم، في اللغة والمعاجم، لظاهر خير الله الشُّوَيْري (١٢٥٠-١٣٣٤هـ = ١٨٣٤-١٩١٦م). فهذا، فيما أظن، أول كتاب يكون في عنوانه لفظ المعجم.

٤- وفي سنة ١٩٠٨م صدر «**المُنْجِد**»[1] للويس معلوف (١٢٨٤-١٣٦٥هـ = ١٨٦٧-١٩٤٦م) في بيروت، عن دار المشرق، وجاء فيه في مادة (ق م س) ما جاء في أقرب الموارد، غير أنه في طبعة سنة ١٩٦٧م جعلوا مكان عبارة: «يطلقه أهل زماننا»: «ويطلَق اليوم»، مجاراة للتعبير العصري.

ولا بد أن نذكر هنا تتمة للتتابع التاريخي كتابين آخرين:

• أحدهما لأمين معلوف (١٢٨٨-١٣٦٢هـ = ١٨٧١-١٩٤٣م)، ذلك أنه كتب في مجلة المقتطَف سلسلة مقالات منذ سنة ١٩٠٨م بعنوان: «**معجم الحيوان**»[2]، أي بعد «**معجم الطالب**» بسنة، ثم صدرت في كتاب سنة ١٩٣٢م[3].

• والآخر لمحمد دياب (١٢٦٩-١٣٣٩هـ = ١٨٥٢-١٩٢١م) بعنوان: «**معجم الألفاظ الحديثة**»، صدر في القاهرة سنة ١٩١٩م[4].

---

(١) **المنجد**، للويس معلوف، دار المشرق، بيروت، ١٩٠٨م.

(٢) **مجلة المقتطف**، ١٠/١٩٠٨م، ص ٨٤٣.

(٣) **معجم الحيوان**، لأمين معلوف، نشر المقتطف، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٤) لم أطلع عليه، وانظر **الأعلام** ١٢٢/٦.

• ولا بد أن نذكر أيضًا أن المعجم والمعاجم مستعملان في مجلة «**لغة العرب**» في كتابة صاحبها أَنِسْتاس الكَرْمِلي (١٢٦٣-١٣٦٦هـ = ١٨٤٦-١٩٤٧م) وغيره منذ صدورها سنة ١٩١١م[١].

٥- وفي سنة ١٩٢٧م صدر كتاب: «**المعتمَد، فيما يحتاج إليه المنشئون والمتأدبون من متن اللغة العربية**» لجرجي شاهين عطية (-١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م)، وأذكره لأنه ضمن هذه السلسلة، ولم أطلع عليه[٢].

٦- وفي سنة ١٩٢٧م أيضًا طبع في المطبعة الأمريكية في بيروت كتاب: «**البستان**»، لعبد الله البستاني (١٢٧١-١٣٤٨ هـ = ١٨٥٤-١٩٣٠م)، وقال في صفحة العنوان: «وهو معجم لغوي»[٣]، فترك ما في صدر محيط المحيط من قوله: «قاموس مطول للغة». وله مختصر أيضًا يسمى: «**فاكهة البستان**»[٤].

ومن هذا يتبين أن استعمال لفظ «قاموس» للكتاب المفسِّر للألفاظ المرتَّب على الحروف أحادي اللغة أو ثنائي اللغة، لم يكن إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري)، ويتلوه في الزمن استعمال لفظ «معجم» لهذا المعنى، فلم يكن إلا في أواخر هذا القرن.

والله أعلم

---

[١] **مجلة لغة العرب**، انظر مثلا: ١٢/١.

[٢] انظر **الأعلام** ١١٧/٢.

[٣] **البستان**، لعبد الله البستاني، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٢٧م.

[٤] **فاكهة البستان**، لعبد الله البستاني، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٠م.